الحضارة.. اللذة التي يبحث عنها العرب

عبد الله العلوي

الإصلاح، والنهضة، والحضارة، والتربية الحسنة، والتقدم؛ هي الوجبات المخبأة التي يرجو الجميع تذوقها، وكلهم يدّعون أنهم يريدون الوصول إليها، بل إنه وصل بهم الهوس الجنوني في توهمهم لهذه الكلمات اللذيذة، ومدى فاعليتها في المجتمعات العربية، وأصبحوا يوقنون بأنهم يعيشون في حضارة وتقدم يحسدهم الآخرون عليها، فألسنتهم ما زالت وستزال تشتهي التحدث بها، ولكنهم يتشدقون بما لا يفعلون، وهذا ما يحاول بركات محمد مراد إثباته في مقالة «فلسفة مالك بن نبي الحضارية» وكما يقول الشاعر:

وكل يدعي وصلا بليلى ...
وليلى لا تقر لهم وصالا

لو رجعنا للوراء قرونا مضت أي قبل الثورة الفرنسية، وتمعنا في التاريخ الأوروبي، لوجدنا أن هناك تخلّفا مسيطرا، وجهلا مستفحلا، وديكتاتورية دينية هوجاء من قبل الكنيسة، فلذا كان شيوع الفلاسفة والمفكرين، جريمة يعاقب عليها القانون الكنيسي، لذلك وجدنا الكثير من فئة المثقفين والمفكرين تم إقصاؤهم حتى وصل ببعضهم إلى القتل والحرق أمثال المصلح التشيكي جان هوس، بل إن بعضهم كان يطبع كتبه في خارج بلاده مثل جاليليو وديكارت وسبينوزا وديارو وجان جاك روسو، فكانوا يدخلون كتبهم إلى فرنسا بالخفاء، خوفا ورهبة من الكنيسة. لذلك فإن تلك العصور تم تسميتها بعصور الظلام؛ لأن المجتمع الأوروبي كان يعيش في ظلام دامس، وتقوقع على الذات، وخوف كبير، لذا فإن غالب المنتجات الفكرية البشرية ضحلة مستوردة، إلا النزر من المبدعين، ومنهم شكسبير، لأنه لم ينتقد الكنيسة في كتاباته، وكل ذلك عائد إلى الفهم الخاطئ لمفهوم الدين. فالدين لم يمنع الحضارة، وهنا أستند إلى مقولة للكاتب بان الأسدي في مقالة الاستبداد الديني حيث يقول: «ومشكلة هذه الأمة أنهم -أي القادة الدينيين- لبني إسرائيل، قاموا بتحريف التوراة والإنجيل حسب ما تهوى أنفسهم، -أي اليهود والنصارى- وكذلك سنوا القوانين والشرائع بما يخدم مصالحهم، ويؤمن لهم العيش الرغيد على حساب أبناء جلدتهم ودينهم، فقد حدثت في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر مجازر باسم الكنيسة والإنجيل والكتاب المقدس"، إذن فالخطأ ليس من الدين الذي يعتنقه البشر، بل في طريقة ممارسة البشر للدين، فمبادئ الشيوعية قامت على الاهتمام بالفرد والمجتمع، ولكن عندما جاء تطبيق النظرية جاء مغايرًا عن الفكرة الأساسية التي قامت عليها الشيوعية، حتى بلغ بوزير المالية للنظام الشيوعي "جيفارا"، تركه للسلطة الحاكمة، وخروجه إلى مصر، وكل ذلك تأتي نتيجة للتطبيق الخاطئ للشيوعية، منها كان المجتمع منصاعا غير مبالٍ أنه يسير في طريق مسدود، لأنّ السلطة الدّينية كانت تسد عينه عن مشاهدة الحقيقة، ويبقى الشعب راضيا بهذا الأمر، ولا ينبس بأي كلمة فوق كل ذلك، إلا أنه عندما جاءت الرغبة الحقيقية من أفراد هذا المجتمع المتهالك تغيرت أشياء كثيرة فيها، فأصبح مجتمعا يتمتع بالحضارة البشرية، أصبح مجتمعا يهتم بالإنسان، لا يهتم بالمصلحة الجسدية بل اهتم بالمصلحة العقلية والفكرية والعلمية، لذلك خرج المفكرون والفلاسفة والكتّاب والنقاد والعلماء في جميع المجالات التطبيقية والمجالات الإنسانية، وما تجد مجتمعا أوروبيا إلا وهو يتنفس الإنتاج الذاتي.

إن الحضارة البشرية لا تحتاج أبدا إلى فلسفة، بل تحتاج إلى اليقين الذاتي بالرغبة لذلك، تحتاج إلى مبادئ تكون أكثر فاعلية في المجتمع الواحد، فلا يوجد إنسان في هذا الكون لا يريد أن يكون مثقفا أو عالما أو قارئا، أو غنيا أو يعيش في رفاهية، أو يعيش في بلدة بها من الحضارة ما يغبطه عليها الآخرون، ولكن إذا انتفت الرغبة اليقينية الداخلية لم تنشأ هناك حضارة، فاجتماع العمال في ملعب كرة السلة في فرنسا أدى بهم إلى قيام حضارة امتدت إلى كل ربوع المجتمعات الأوروبية.

إن ظاهرة الإصلاح المجتمعي في المجتمع العربي والإسلامي هي ظاهرة ليست وليدة اللحظة، بل وليدة قرون ماضية، منذ زمن الدول الإسلامية في سنيها الأولى، إلا أنها خفتت بشكل تدريجي لأن السلطة القائمة بهذه المهمة أصبحت هي السلطة السياسية التي تمثلت في الدول الإسلامية بداية بالمجتمع الذي بناه الرسول الكريم بالمدينة المنورة مرورا بدولة الخلفاء الراشدين ثم الدولة الأموية والعباسية وهلم جرا، إلى أن تفرقت الدول الإسلامية فأخذت كل دولة تقوم بالإصلاح وفقا لقراراتها وقيمها الاجتماعية والدينية التي تعتقدها أنها صحيحة، لذا فإنك تجد أن في الدولة الأموية بالأندلس في حقبة الحاجب المنصور مُنعتْ كتب الفلسفة والمنطق بل تم حرقها واتّهام أصحابها بأنهم زنادقة، مما اضطر الكثير من الفلاسفة المسلمين إلى الهجرة إلى الشرق العربي لكي يكملوا ما بدأوه، لأنهم وجدوها بيئة ولادة للعلوم في عهدها وكذا العكس.

أما ظاهرة الإصلاح في العصور الحديثة فيمكن أن نقول أن هناك تغييرا ما قد حدث، فصار همُّ المصلحين في المجتمعات العربية إنشاء مجتمع مثقف ومفكر وحضاري يسير وفقا لمقتضيات العصر الذي يعيشه، شريطة ألا يتخطى ذلك القيم الدينية التي نشأ عليها المجتمع. كما نجد أنّ المصلحين حملوا على عاتقهم المجتمع فهم يعتبرون أن المجتمع أمانة، عليهم أن يصلحوا كل واحد فيه وفقا لأفكارهم التي استندوا عليها نتيجة للمرجعيات الدينية والثقافية والمجتمعية، رغم أن الإصلاحيين في المجتمع العربي أمثال جمال الدين الأفغاني ومالك بن نبي ومحمد عبده اكتسبوا هذه الثقافة جلها أو أغلبها من المجتمعات الغربية نتيجة انبهارهم بها، وما وجدوه من تطور على جميع الأصعدة والمجالات المختلفة، فمالك بن نبي عاش لمدة لا تقل عن عشرين سنة، وقد تزوّج فرنسية، ولا شك أن كل هذه العوامل أثرت على فكره ومنطلقاته الإصلاحية. لذا عندما جاء إلى مصر حرص على إصلاح المجتمع المصري، ثم اتجه للجزائر وبدأ حملته الإصلاحية في الجزائر إلى أن توفي، وهكذا شأن غالب المصلحين العرب.

لا شك أنه ليست هناك أدنى مشكلة في الأخذ من ثقافات الأمم المختلفة بكافة أعراقها وديناتها، فالحضارة لا تولد من الصفر بل تأخذ ممن سبقها من الحضارات، وهذا ما فعله رسول الله في غزوة الخندق عندما استعان بسلمان الفارسي من فكرة حفر الخندق، كذا فعل عمر بن الخطاب في سك العمل النقدية وكتابة الدواوين، والعلوم جميعها عبارة عن تراكمات مختلفة من أمم مختلفة، فاليوم يأتينا عالم ويكتشف لنا نظرية ثم يأتي غدا آخر ويفندها ويطورها ويزيد عليها وينقص منها، وهذا لا يمكن أن نقول بأنه نقص بل هو الوصول للكمال، ولكن المشكلة العظمى أن نكون نواقيس للآخر، ونصبح أمة مستوردة فقط دون أن يكون هناك إنتاج فكري ذاتي، قائم على عقول بشرية من ذات المجتمع المتطلع للحضارة، عندها نستطيع أن نقول أننا أمة تصنع حضارتها، ويتأتى ذلك من خلال الاستعانة بمقومات الحضارة، وهي الإنسان والأرض والوقت، فالاهتمام بمنتج الحضارة وهو الإنسان من كل الجوانب يخرج لنا جيلا يقرأ الماضي ويترجمه للحاضر، يفكر ويحصد، يورّد ويصدّر، يأخذ ويعطي، فالإنسان هو الأساس الذي يجب أن نهتم به لنقيم حضارة مستقيمة، كذا الأرض التي يعيش فيها هذا الإنسان فتاريخ الأرض هو داعم أساسي من دعائم تكوين الحضارة، كذلك الوقت المناسب الذي يجب أن نستثمر فيه هذه الطاقات البشرية التي ستنتج لنا هذه الحضارة، منها نستطيع أن نصدر للغير ثقافتنا كما فعل الاستيطان الأوروبي على الدول العربية، فهو لم يستعمر الدول العربية عسكريا فقط بل استعمرها ثقافيا وفكريا..

لقد عانت الثقافة في الوطن العربي من المدّعين للثقافة، فقد أصبحت الثقافة عبارة عن نظريات وفلسفات مكتوبة بين دفتي الكتب، أو بين الحنكين، ولم يتم تطبيقها في الواقع، وهذا لا يعطينا الحق بالتقليل من شأن المجهود الذهني والعقلي لإنشاء مثل هذه النظريات والفلسفات، ولكن ما الفائدة من كل ذلك إذا لم تكن عملية ويمكن تطبيقها على أرض الواقع، فالثقافة لا تكون في الكتب بل يجب أن يمارسها أفراد المجتمع من كل جوانبها، كي تستطيع أن تكوّن جيلا صاعدا. ولا بد للثقافة أن يكون لها وظيفة اجتماعية، فاختلاف الثقافات في المجتمع الواحد لا يعني اختلاف البشر، بل عكس ذلك يعطينا تلاقح الأفكار ببعضها بعضا.

ختاما: لقد دعت الرسالات السماوية والكتب المقدسة إلى العمل الجاد وتربية الروح، والإصلاح الاجتماعي دون أن يعد المصلحون أنفسهم أنهم أوصياء على الأفراد والمجتمعات، فيجب فتح المجال للعقل البشري أن يفكر ويبدع وينتج وفقا لمقتضيات وأدوات العصر الذي يعيشه دون أن يكون هناك سلطة تمنعه من أن يحقق ما يريد أو يفكر فيه ويبدع فيه.

abdlla1991@gmail.com